مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات
المصدر: الاهـــــرام
التاريخ : ١٩٧٦/٩/٢٠

انتخبنـــــاه ..

لأنـه حطم أصـنام الخـوف

يوسـف جـوهر

ذات عام

كنت ماشيا مع صديق على كورنيش الاسكندرية ساعة الغروب .. واقتربنا من سيارته وقد فرغنا من رياضتنا .. ولعلنا كنا نتحدث فى شـأن من شـئون السياسة عندما ادخل صـاحبى على الحديث « نكتة » تسىء النقد الساخر احد الحاكمين بأمرهم ، الذين يمشـون فى الارض مرحا وطغيانا .. وفوجئنا ونحن ندخل السيارة بشـابين كانا فى اثرنا يقولان ، وقد بلغت النكتة مسمعهما ، بصوت بين الجد والدعابة : « سنبلغ »!

قلت لهما باستخفاف وأنا أحاول أن أنأى بهما عن الجد : « لن تنالا مني بالوقيعة .. فاننا مجهولان لكما » .. وقاطعني احدهما والسيارة تتحرك : « عرفنا ارقام السيارة .. وعلى المخابرات .. الباقي » .

وقال صاحبي والسيارة تبتعد ، وقد هرب لونه : « يعملوها » .

وكانت زوجة صاحبي في انتظارنا في حديقة البوريفاج .. وقصصنا عليها القصة لنسليها .. واصابها هلع ، زعمنا اننا نضحك منه ، ونحن نعانيه !

والناس في الحدائق يتجاذبون أطراف الحديث .. اما نحن فقد أخذنا نتجاذب أطراف الخوف .. ترى هل يبلغ الشيطان حقا عن رقم السيارة .. ثم مايكون من أمر القبض على صاحبها ، ومطالبته بالارشاد عن شريكه في تلك النكتة الاثمة .. الذي هو حضرتنا .. وهل يكون شهما ولا يبوح باسمي .. ولكن أين هي الشهامة التي تصمد للبطش .. ياصديقي حلمي ستتحطم أسنانك التي تحبس وراءها الكلمات .. وستسيل الاعترافات من شفتيك الداميتين تروي وقائع لم تحدث .. والنكتة سينفخ فيها الافتراء فتتحول الى مؤامرة — النكتة سمعناها من فلان .. وفلان نقلها عن فلان .. وماذا يكون ذلك الا التواطؤ على قلب نظام الحكم .. شكرا للشابين الواعيين اللذين التقطا رقم السيارة .. هذه هي اليقظة المطلوبة من كل مواطن ضد اعداء الوطن .

يا رفعتك السودا ياصديقي حلمي .. أنت تنتزع رزقك من شق قلمك ، فماذا انت صانع عندما يقبض على هذا القلم .. يسجوع الاولاد .. العفت ستصيب زوجك يا حلمي من الزبانية .. وزوار الفجر ! ...

قالت الزوجة بصوت مخلف بالابتسام ومعبأ بالتشاؤم : « هل هذا عقل ان تشتما الحكام على قارعة الطريق .. وتتهم الامثال المرأة بان لسانها سايب .. قلبتم النساء ... »

قاطعها حانقا : « هل تعلمين معنى ان نعجز عن أن نقول نكتة في العلن ... الانتان ينكت احيانا كما يعطس .. كيف نعاقب انسانا لانه عطس » .

واصلت محاولا ان الطف الجو « ياسيدتي القاضية تعذر » فاجابته وقد كرهت منه انه زجرها واثارتها الحدة في كلماته :

« انت نكت وانا الوص بالاولاد .. افق خفيف الظل .. وفكر في المحامي الذي سيتولى أمرك بعد القبض عليك »

ضحكت وشر البلية ما يضحك .. الناس يجيئون الى حديقة هذا الفندق ليتناولوا الشاي والفطائر .. اكتشفت أن الشاي برد .. والفطائر نسيناها وأخذنا نتقاسم فطيرة الرعب : «ياسيدتي هوني على نفسك .. لا بلاغ ولايحزنون» .

اجابت وهي تحاول أن تكون مؤدبة ونظراتها تفضحها : « كتر خيرك . وديت لي الراجل في داهية .. حد ينكت في الشارع » !

عدت الى البيت وفي القلب غصة وفي النفس مرارة .. رفض النوم أن يحتوي ما أعاني من كمد .. بلغ بنا الحال أنك لا تستطيع أن تتناول رجال الحكم

بدعابة ، فى الهواء الطلق .. واذا الحت عليك نكتة فعليك أن تغلق النوافذ .. أو تلوذ بخندق الحذر .. او تدخل انت وصاحبك تحت عباءة لكى تهمس بكلمات كل متهتك منها المشاركة ، أن ترى وقعها على السامعين وانت ترويها !

فى الفجر دق جرس التليفون : يافتاح يا عليم .. صدقت نبوءة زوجتك ياحلمى .. المخابرات لابد على الخط .. كذب المنجم الذى قال لى أن خط العمر فى كفى طويل .. لن أتحمل « غلوة » واحدة فى غرف التعذيب .. أحسست أن يدى أثقل من أن تصل الى التليفون .. صارت من الرمل أو من الحديد .. هل أتناوم .. هل أتسلل وأنجو من سلم الخدم .. لكن لعله كمين .. واضبط متلبسا بالهرب .. ويكون ذلك قرينة على الجريمة .. ولن تكون جريمة احراز نكتة .. زوار الفجر احصف من أن يمزقوا الوسائد ويحطموا الدواليب بحثا عن نكته .. أظرف وأدعى الى المهابة ، لى ولهم ، أن تكون الجريمة احراز سلاح .. ولن يكون ذلك افكا او بهتانا .. الاعمال بالنيات .. والنكتة المعادية للحكام هى جنين القنابل .

اذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا .. مددت الى السماعة يدى الحديدية .. قلت نعم بدلا من آلوا امعانا فى حسن الادب .. لكل مقام مقال .. يارحمة السماء .. ليبسوا زوار الفجر .. انها زوجة صديقى حلمى!

قالت بصوت مريض : «لم انم ولادقيقة .. صاحبك يغط ولا يدرى أنه نائم فوق بركان .. يا اعصابه .. هندى فكرة .. جهز حقيبة صغيرة وتعال لتنتزعه من فراشه وتأخذه معك .. وتسافران الى مكان مجهول .. تسافران الى الخارج .. من باب الاحتياط » ! ..

قاطعتها : « نامى ياسيدتى أرجوك » زوجة صديقى حلمى مجنونة قليلا .. نتشرد من أجل نكتة .. لكن لا .. لعلى ظلمت السيدة ، والاصح انى قليل العقل ..كيف لا اتمط براس الذئب الطائر.. اعرفه كثيرين لهم أعوام فى المعتقل .. لا تحقيق ولا جريمة .. ولم يضبطوا متلبسين ولا حتى بنكتة ..

مددت أصابع الرمل الى وجه يتصبب عرقا .. الادهى أن أعصابى .. أن « داخلى » كان يتصبب عرقا .. كنت خجلا من نفسى ، ومن الخوف الذى احتوانى .. خجلا من الاوضاع التى تسمح أن أساق فى لحظة الى حيث لا أعلم ، وقد وضع على وجهى قناع .

●●●

بعد أيام من الترقب رجحنا أن « الحادث » مر بسلام .. وان الشابين كانا بمزحان .. ككل المصريين فطرا على حب الدعابة . والجد الذى تخيلناه فى لهجتيهما كان من تهاويل الخوف .

ولكننى حتى اليوم أتصبب عرقا من الداخل .. من أعماق نفسى .. كلما تذكرت دولة المخابرات ، وحصة التموين التى وزعتها على المصريين بالعدل والقسطاس .. تموين الخوف .. لكل نصيبه من الخوف .. الخوف من اليوم أن لا يمضى بسلام .. الخوف من الغد المجهول .. الخوف من الامس أن يعود ويمسكنا بجرائم لم نرتكبها .

وجاء اليوم الذى حررنا من ربقة الخوف .. وصار بشير الامن والطمأنينة .. جاءنا أنور السادات بيوم ١٥ مايو .

ولم تعد « المخابرات » مخلب مراكز القوى ونابها .

لقد مضى علينا وقت بلغنا فيه من الهوان أن أى رجل صغير كان يستطيع أن يبث من حوله الرعب والهلع اذا أشاع أنه .. مخابرات فما بالك بالسادة الكبار .

وما بالك بضعاف النفوس والاباقين الذين اتخذوا من لفظ « المخابرات » كلمة سر يبلغون بها ما يريدون .. مرة شاهدت شجارا فى الطريق ، وعندما أحاط الناس بالمعتدى وهو غير مختون صاح فيهم « أنا مخابرات » كأن هذا يكفى لكى ينفضوا من حوله ، ويكفى لا يحجموا عن مناصرة الحق بعد اقدام !

هكذا ضرب السادات على يد الزبانية .. وأطاح فى ١٥ مايو بأدوات البطش .. واعدمت الاشرطة التى قصد بها أن يشنق المصرى نفسه بحبال صوته .

لم يعد الرجال فى حاجة لكى يرفعوا الرؤوس أن يمشوا منكسى الضمائر .. ولا أن يقسموا انهم يقولون الحق كاذبون .. لم يعودوا يخشون أن يساقوا كالسائمة الى حيث يصفعون على أقفيتهم ، ويلطمون فى كرامتهم ، ويهددون فى زوجاتهم وبناتهم . مضت الايام السود التى استؤجر فيها بعض القضاة لكى يطعنوا زملاءهم فى الظهر ، ثم يتقاضون أجر القاتل المحترف .. .. العدالة التى ماتت وقرأ فقهاء القانون على روحها الفاتحة ، مزق السادات اكفانها وأخرجها من قبرها .. هو صاحب المعجزة .. من كان يظن أن القبور ستصبح بلا موتى ، والمعتقلات بغير معتقلين ، وأن السجون ستخلو من المعذبين فى الارض .

من سواه كان مستطيعا أن يحطم أصنام الخوف ؟! .. .

غيره قنع بهز الاكتاف ومصمصة الشفاه .. ابتلعوا الاقراص المهدئة ، اقراص المنفعة ، ناموا بعيون قريرة على فراشهم الوثير .. لا يستيقظون الا ربثما يناقون السلطان ويدنسون لغتوات التكم اناوة الرياء والمداهنة .

لهذا انتخبناه .. لانه حطم أصنام الخوف .

الاصنام التى نصبت هنا .. واقتبس أعداؤنا فكرتها وأقاموها هناك ، فى سيناء ..

هذا الشعب الخليط البسيط اللقيط ، الذى دنس أرضنا ، نفخ فى اسطورة الخوف ، وجعل على مياه القناة غطاء من نار ، وأسكن كل حبة رمل مارداً يتربص بنا ، ، وصور لنا الخطر كأمنا وراء كل ربوة وكل صخرة .. وصورنا سكارى فى شارع الهرم نهرب بالخمر من الهول الذى يرقبنا ساخرا هناك .. ويتحدانا أن نقترب .

هو السادات الذى اخترق بنا حاجز الرهبة ، وقادنا فى العصور العظيم .. ومكننا من هذا الجيش الصملوك ، نمرغ أمجاده فى التراب ، وندفن كبرياءه فى الرمال .

هو الذى جعل العالم يعرف أننا لم نكن سكارى فى شارع الهرم .

وجعلنا نعرف أن المؤمنين قادرون دائما على تحطيم الاصنام .. وأننا أقوى مما كنا نظن .

ولهذا انتخبناه . □